سُورَةُ الفَاتِحَةِ

صَانِعَةُ

الغَضَبِ الجِهَادِيِّ والإِنْعَامِ السَّرْمَدِيِّ



« قِرَاءَةٌ جَدِيدَةٌ فِي التَّفْسِيرِ المَوْضُوعِي »

صَنْعَة:

أوَّاب بن حَسَن الحَسَنِيّ

غَفَرَ الله لَهُ ولِوَالِدَيْهِ وَلِمَشَايِخِهِ
وَلِجَمِيعِ المُسْلِمِين



إهداء

إلى المجاهدين الحاملين لواء الجهاد في سبيل الله، وتحكيم الشريعة الإسلامية، والسُنَّة المحمدية..

وإلى فرسان الإيمان المقاتلين بأكناف بيت المقْدِس، وأرواح أبطال الطوفان الذين أنعم الله عليهم بالشهادة في سبيله في العبور المُقَدَّس ..

إلى أهلنا المُرابِطِين المُصَابِرِين الأعزَّةِ في غزَّة، الذين علَّمُونَا دُروسَ العِزَّةِ والإيمانِ والصَّبرِ واليقين..

وإلى من اصْطَنَعَهُم الله على عَينِهِ من الأطباء الأبرار، والمسعفين الأخيار، والمرابطين على ثغر الإعلام في غَزَّة العِزَّة..

أهدي هذا العمل القرآني لكم .. سائلًا الله - عز وجل - أن ينصركم على الصهاينة الحاقدين والصليبيين المعتدين، وأن يمكن لكم في الأرض، كما أسأله أن يرزقني النفير إليكم، والجهاد معكم، والرباط بأرضكم الأبيَّة العصيَّة .. آمين آمين

مقدمة الجزء التفسيري

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على نبيه وعبده، وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فهذا هو الجزء الثاني من سلسلة (**تأويل آي الجهاد**)، التي أسعف الخاطر بتقييدها من مجالس المدارسات القرآنية المعقودة في شهور رمضان المباركة، بحضرة شيخنا العلامة الشهيد دوست محمد النورستاني - تقبله الله - قائد المجاهدين في شمال شرق أفغانستان، ووالي ولاية نورستان في إمارة أفغانستان الإسلامية، من عام (1422هـ) وحتى استشهاده عامَ (1434هـ)، وقد دأب الشيخ على التفرغ لمدارسة القرآن في شهور رمضان مع ثُلَّةٍ من أهل العلم والجهاد، مُوليًا آيات الجهاد والاستشهاد عنايةً فائقةً في تأويلها وتفسيرها، واستنباط مدلولاتها وفوائدها، وتدبر هداياتها وأسرارها، كما كان من مذهب الشيخ - رحمه الله - عقب ذكره لأقاويل السلف في التفسير، وبعد ترجيحه للمعاني الظاهرة حسب قواعد التفسير وأصول الاستنباط، ومراعاة السِّبَاقِ واللِّحَاقِ، أن يذهب في التدبر العميق لأسرارها كُلَّ مذهب، جَرْيًا على طريقة الصحابة - رضوان الله عليهم - في تأويل آي الجهاد، وعمدته في ذلك ما رواه الإمام الطبري في تفسيره حيث قال: « **كان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- إذا صلى السُّبْحة[1] وفرغ، دخل مربدًا[2] له، فأرسل إلى فتيان قد قرأوا القرآن، منهم ابن عباس وابن أخي عيينة، قال: فيأتون فيقرأون القرآن ويتدارسونه، فإذا كانت القائلة انصرف، قال فمرُّوا بهذه الآية:** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٢٠٦ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾ البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٧، - قال ابن زيد: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله - **وقال ابن عباس لبعض من كان إلى جنبه: اقتتل الرجلان.**

فسمع عمر بن الخطاب ما قال، فقال: وأيُّ شيءٍ قلتَ؟

قال: لا شيءَ يا أميرَ المؤمنين.

قال: ماذا قلت؟ اقتتل الرجلان؟!

فلما رأى ذلك ابن عباس قال: أرى يا أمير المؤمنين أن ههنا مَنْ إذا أُمِر بتقوى الله أخذته العزة بالإثم، وأرى من يَشري نفسه ابتغاءَ مرضاة الله، يقوم هذا فيأمر هذا بتقوى الله، فإذا لم يقبل وأخذته العزة بالإثم، قال هذا: وأنا أشتري نفسي، فقاتله، فاقتتل الرجلان.

[1] السَبْحَة: صلاة التطوع والنافلة، يقال فرغ فلان من سبحته، أي من صلاة النافلة.

[2] المِرْبَد: فضاءٌ أو مكانٌ كالحُجْرَةِ يكون وراء البيوت، يجعل فيه التمر عند الجذاذ فيتم تجفيفه فيه، ثم يصير في الأوعية.

فقال عمر: لله بلادك - أو تلادك - يا بن عباس».

وروى الإمام الطبري أيضًا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - عليه السلام - أنه قال: «**اقْتَتَلَا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ**».

وقال الإمام البغوي في تفسيره: «**وَقَالَ الْحَسَنُ: أَتَدْرُونَ فِيمَنْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ؟ نَزَلَتْ فِي الْمُسْلِمِ يَلْقَى الْكَافِرَ فَيَقُولُ لَهُ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَيَأْبَى أَنْ يَقُولَهَا، فَقَالَ الْمُسْلِمُ وَاللَّهِ لَأَشْرِيَنَّ نَفْسِي لِلَّهِ، فَتَقَدَّمَ فَقَاتَلَ وَحْدَهُ حَتَّى قُتِلَ**».

فهذه المجالس العُمَرِيَّةِ القرآنية التي كان أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يتدارس فيها القرآن مع فتيان الصحابة، وهذه الدِّقَّةُ في التَّدَبُّرِ، والحِدَّةُ في الفَهْمِ، كانت مُعْتَمَدَ شيخنا النورستاني الشهيد في مدارساته القرآنية مع طلبة العلم والمجاهدين، فرحمة الله عليه رحمة واسعة.

هذا وقد يَسَّرَ الله بكرمه ولطفه نشر الجزء الأول من هذه السلسلة وكان عنوانها: (**سورة العاديات صانعة النفس الانغماسية والأرواح الاستشهادية**)، وذكرت حينها أن من أعظم مطالب السورة وأسرارها: (**صناعة الفدائية الانغماسية، والعزيمة الاستشهادية في النفوس الجهادية**)، ومن فضل الله تعالى وكرمه أنه لم يَمُر على نشرها أقلَّ من شَهْرٍ حتى أكرمنا الله بأن ضَجَّ العالمُ أجمع صبيحة يوم السابع من أكتوبر عام 2023 على إثر هجومٍ جهاديٍّ انغماسيٍ لا مثيل له، قام به المجاهدون الأبرار في غَزَّة فِلَسْطِين، فكانت هذه المعركة الانغماسية، والبسالَة الغَزِّيَّة بتوفيق الله خير مصداقٍ على ما كان الجزء الأول بصدد تقريره، وخير شاهدٍ على تأويل العاديات الضابحات، والموريات القادحات، والمغيرات المُصَبِّحات، والمثيرات النقع، والمتوسطات الجمع، بالكتائب الجهادية الانغماسية، وسرايا الاستشهاد الفداوية، فإن ما تم تقريره في ذلك الجزء يصدق على العمليات الانغماسيَّة الجماعيَّة لا الفردية، فتقبَّل الله من أبطال طوفان الأقصى هذه المعركة الفدائية الجليلة، التي أعادت ماء الحياة إلى النفوس الفَتِيَّة، ونفخت روح الجهاد في الأمة من جديد، وأسأله تعالى أن يجعل مثواهم في أعلى عِلِّيين، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

أما هذا الجزء الذي بين يديك الكريمتين أيها القارئ الكريم، فقد يَسَّرَ الله تعالى أن يكون عُنْوَانه: (**سورة الفاتحة صانعة الغضب الجهادي والإنعام السرمدي**)، ومناسبته للجزء الأول غير خافية على المتأمل، فالانغماس في أعداء الله ثمرة من ثمار التحريض القرآني الصانع للغضب الجهادي، وهذا الغضب الجهادي إن تُرْجِمَ بالقتال في سبيل الله كما يريد الله، فهو بابٌ موصلٌ للإنعام السرمدي، ومن الواجب قبل الشروع في مطالب هذا الجزء المختصر، أن أشكر كلَّ من ساهم في مراجعته ونقده وتصحيحه وتكميله من مشايخي الفضلاء وإخواني النُّجَبَاء، وأخص بالشكر فضيلة الشيخ الكريم، وأستاذ التفسير والحديث الدكتور حاكم المطيري - سدده الله - جزاء نصحه ونقده لهذا الجزء وعنوانه الذي تم تغييره بناءً على ملاحظاته النافعة، وكان مما قاله لي - جزاه الله خيرا -: (**بالنسبة لما ذكرته في الفاتحة، وحديثك عن الجماعة المجاهدة، فقد يفهم منه التأصيل الحزبي للجماعة، بينما القرآن يتحدث عن الأمة وعن المؤمنين والمسلمين عموما، ووجوب موالاتهم، ونصرتهم، ولا يُتصور انعدامهم في أرض الإسلام، فالولاء هو لهم جميعا، والنصرة لهم، والولاية لهم**) ا.هـ

كما أخص بالشكر الشيوخ الكرام أبي خالد سيف العدل - وفقه الله -، وأبي عبيدة يوسف العنابي - حفظه الله -، وأبي فاتح عبد الرحمن المغربي - رعاه الله - جزاء مشاركتهم في التصحيح والإنضاج والمراجعة، والله تعالى أسأل أن يوفق للخير والبر والسداد والرشاد كلَّ من سدَّدني ونصحني وعلمني وأرشدني ممن لم تسنح الظروف بذكرهم من شيوخي الأبرار وإخواني الأخيار، فجزاهم الله بخير ما جزى شيخا عن تلامذته، ورزقهم مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر.

وليعلم القارئ الكريم أنني ما زلت مُتعلِّما ما دامَ ثمَّةَ من يُعلمني، فأرجو من كل مسلم نصوح إن وجد في هذا الجزء وأجزاء هذه السلسلة ولكلِّ ما تخطه يد العبد الفقير من نتاج القلم خَطَلًا أو زَلَلًا أن يسعوا عاجلًا إلى تصويبه وتصحيحه والتعقيب عليه، نُصحًا لله ولكتابه ولرسوله - عليه الصلاة والسلام -، ونصحا لعامة المسلمين وخاصتهم، فما كان فيما كتبته من حقٍّ فهو من فتح الله وعونه وتوفيقه، وما كان من خطأ فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله منه بريئان، والعبدُ راجعٌ عنه بغير توان، والله المستعان، وعليه التكلان، ومن توكل واستعان بغير الله لا يُعان.

جِهَادِيَّةُ السُّوْرَة

رُوِيَ عن أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب -عليه السلام- أنه قال: (**لَوْ شِئْتُ لَأَوْقَرْتُ لكم سبعين بعيرًا من سورة الفاتحة**)، وفي رواية: (**شرح موسى -عليه السلام- التوراة في سبعين سِفرًا، ولو أَذِنَ لِي رسولُ اللهِ -صَلَّى الله عليه وسلَّم- لأوقرت على الفاتحة سبعين بعيرًا**)، معنى ذلك: أي (لو شئت لكتبتُ لكم من المجلدات والكتب في تفسير سورة الفاتحة، وبيان أسرارها وفوائدها ما لا يستطيع حمل هذه الكتب والمجلدات إلا سبعين بعيرًا).

هذا الأثر الباهر الذي رواه جماعة من أهل الرواية والآثار، يبعث المرء كُلَّ يومٍ على التفكر والتدبر في أسرار سورة الفاتحة وهداياتها، والاستغراق التام في البحث عن مضامينها الثريّة، وكنوزها المخبوءة، واستنباط مدلولاتها التي لا حصر لها، قال الإمام أبو العباس ابن تيمية الحفيد –رحمه الله- في مجموع فُتْيَاه: (**وأما ما يُروى عن بعضهم من الكلام المجمل مثل قول بعضهم: «لو شئت لأوقرت من تفسير فاتحة الكتاب ...»، فهذا إذا صَحَّ عَمَّنْ نُقِلَ عَنْهُ كَعَلِيٍّ وَغَيْرِهِ؛ لم يكن فيه دِلَالَةٌ على الباطن المخالف للظاهر، بل يكون هذا من الباطن الصحيح الموافق للظاهر الصحيح**).

وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، أنَّ النبي - صلَّى الله عليه وسلم - قال: «والذي نفسي بِيَدِهِ، مَا أُنْزِلَ فِي التَّوْرَاةِ، وَلاَ فِي الإِنْجِيلِ، وَلاَ فِي الزَّبُورِ، وَلاَ فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا، إِنَّهَا السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الذي أُوتيته»، وهذا خبرٌ جليلٌ يقضي باشتمال الفاتحة على جميع أصول القرآن وكليَّات مقاصده، وهو برهانٌ باهرٌ على عظيم فضلها، وثراء مدلولاتها.

وأخرج البخاري في صحيحه عن عَن أَبِي سَعِيدِ بنِ المُعَلَّى - رضي الله عنه - قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فِي المَسْجِدِ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي، فَقَالَ: «أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: {اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}، ثُمَّ قَالَ لِي: «لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي القُرْآنِ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ»، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ «لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ»، فقَالَ: «الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ».

والفاتحةُ ماكانت أَعْظَمَ سُوَرِ القُرْآنِ إلا لكونها مُتَضَمِّنَةً لجميع أصوله، ومشتملةً على كُلِّيَّاتِ مقاصده، ولهذا سُمِّيَت بِأُمِّ القرآن، وأُمِّ الكتاب، والأساس، والوافية، والكافية، وذلك برهان آخر على إحاطتها بجميعِ المقاصدِ القرآنية.

وَسَرْدُ أقوالِ المفسرين في هذا الشأن مِمّا يَطُولُ بإيراده هذا الجزء المختصر، على أنَّ أَجْوَدَ مَنْ تَكَلَّمَ عن الفاتحة تَدَبُّرًا وتفسيرًا؛ الإمام الهمام ابن القيم - رحمه الله - في كتابه البديع: (مدارج السالكين)، في نحو خمسين صفحة، وكان مما قاله في عِظَمِ شأنها: (**اعلم أنَّ هذه السورة اشتملت على أُمَّهات المطالب العالية أَتَمَّ اشتمال، وتَضَمَّنَتْهَا أَكْمَلَ تَضَمُّنٍ**).

وإنَّ مِن أَهَمِّ مقاصدِ سورة الفاتحة وأَجَلِّ مَطَالِبِهَا: **(دعوةُ أهلِ الإسلامِ للوَلاءِ والانْتِماءِ للأُمَّةِ الإسلامية، وموالاة أوليائها وسادتها والمذاودين عنها من علمائها ومجاهديها المنعم عليهم في كل زمان ومكان، والبراءة من أعدائها المغضوب عليهم والضالين، وإنزال مراد الله فيهم بالغضب والقتال الجهادي، الموصل للشهادة في سبيل الله والإنعام السرمدي).**

فواجب على جميع المسلمين الانتماء إلى أمتهم الإسلامية انتماءً حقيقيًا بموالاتها وموالاة قضاياها المركزية، كقضية المسجد الأقصى وفِلَسطين والحرمين الشريفين، وموالاة العاملين لنصرتها ضد أعداء الإسلام والمسلمين، وعدم مفارقة سبيل الأمة الذي ارتضاه الله لها، وذلك بالتزام سبيل أوليائه المنعم عليهم، وموالاتهم، والذب عنهم، واللحوق بهم، والانتماء إليهم.

إنَّ المؤمنَ البَرَّ حينما يجهر في صلاته بقراءة سورة الفاتحة، فهو يجهر في كلِّ ركعةٍ بإعلانِ بيعته لله - عز وجل - وتجديدِها على التوحيد والتحميد والاستعانة والتمجيد، وببيعته لله على موالاة ورثة الأنبياء من علماء الأمة الرَّبَّانيين، ورجالها الصالحين، ومجاهديها الرِّبِّيين ممن أنعم الله عليهم بسلوك صراطه المستقيم، ومنابذة الشرك والمشركين من المغضوب عليهم والضالين، فالفاتحة كلها تجديد للبيعة والعهد مع الله على مداومة العبودية والتوحيد والجهاد واقتفاء درب الذين أنعم الله عليهم.

ولا يخفى أنَّ سورة الفاتحة من أوائل ما نزل من القرآن المكي، وقد اشتملت على أصول الكتب السماوية كلها، فهي **خلاصةٌ وزبدةٌ لجميع ما نزل به جبريل - عليه السلام - من السماء، وهي مخ القرآن وأساسه ومحوره،** وجميع ما في الكتاب من آيات الجهاد ومقاصدها تأرِزُ إلى سورة الفاتحة كما تأرز الحيَّةُ إلى جُحْرِها، وتَفِيءُ كل مطالب القرآن ومقاصده إلى مطالب هذه السورة الجليلة ومقاصدها.

ومما يكشف للمتدبِّرِ جِهَادِيَّة سورة الفاتحة، أنَّ الجهاد في سبيل الله هو ذروة سنام﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾، ولا حول للمجاهد ولا قوة

له على جهاد أعدائه إلا بـ ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾، ولهذا رُوِيَ أنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كان إِذَا حَضَرَ الْقِتَالَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضُدِي وَنَصِيرِي، بِكَ أَحُولُ، وَبِكَ أَصُولُ، وَبِكَ أُقَاتِلُ**»[3]، **وروى الطبراني والبغوي والديلمي وابن السني وغيرهم بسند فيه مقال أن النبي - عليه الصلاة والسلام – كان يقاتل في غَزَاةٍ فقال: «يا مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين»، قال الراوي: (فجعلت الرؤوس تَنْدُرُ عن كواهلها).**

وتَتَّضِحُ جِهَادِيَّةُ سورة الفاتحة أيضًا في كونها تُحَرِّرُ المجاهد من ذُلِّ الاستعانة بمن ليس للاستعانة بأهل، ففيها تعليمٌ وتفقيهٌ للمجاهد بأن يستعين بالله وحده في قتاله وجهاده، لأنه تعالى القوي الذي لا يَضْعُف، والقاهر الذي لا يخرج عن سلطانه أحد، ومتى ما استعان المجاهد بربه سبحانه، كان الله - جل جلاله - بجانبه، فهو وحده الذي يستطيع أن يحوِّلَ ضعفه إلى قوة، وذُلَّهُ إلى عزة، والمجاهدون في سبيل الله يواجهون في جهادهم دومًا أصحاب القوة والنفوذ والطغيان من أرباب وحلفاء القوى العالمية الكبرى، التي استمرأت محاربة منهج الله في الأرض، واعتادت استعباد ضعفاء البشر، فقوله تعالى: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ إيذانٌ

[3] حديث صحيح، رواه جماعة من المحدثين كأحمد وسعيد بن منصور وأبي عوانة وأبي داود والترمذي في آخرين، قال الإمام البغوي في (شرح السنة): (قَوْلُهُ: أَحُولُ، يَعْنِي: أَحْتَالُ، وَالْحَوْلُ: الْحِيلَةُ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: الْمَنْعُ وَالدَّفْعُ، وَقِيلَ: «بِكَ أَحُولُ» أَيْ: أَتَحَرَّكُ، وَالْحَوْلُ: الْحَرَكَةُ، يُقَالُ: حَالَ الشَّخْصُ: إِذَا تَحَرَّكَ، «وَبِكَ أَصُولُ» أَيْ: أَحْمِلُ عَلَى الْعَدُوِّ، وَيُرْوَى: «وَبِكَ أُحَاوِلُ»، أَيْ: أُطَالِبُ).

سماويٌّ وإيعازٌ ببدء الجهاد والصِرَاع مع الطواغيت كما قال الشيخ الشعراوي - رحمه الله -، ولا فلاح في هذا الجهاد ولا نجاح إلا بتوحيد الله وعبادته، واللجوء إليه والاستعانة عليهم به، ولذلك فإن قوله:﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ هو دستور الحركة الإيمانية في الحياة الجهادية، لأن الاستعانة طلب المعونة عند استنفاد الإنسان للأسباب الناصرة، والأسباب الأرضية مهما عَظُمَ أثرها فإنها تخذل الإنسان في كثيرٍ مِنَ الأحيان، فلابد أن يتذكَّر المجاهد أن له ربًا واحدًا لا يعبد إلا إياه، ومَلِكًا مَالِكًا لا يستعين في الشدائد إلا به، فهو المستعان عند الخذلان، لأنه رَبُّ الأسباب وخالقها ومُسَبِّبُهَا، والمجاهد حين يتجه إلى السماء، فالله سبحانه وتعالى يؤيده ويعينه وينصره.

ومما يُؤَيِّدُ جهاديَّةَ سورة الفاتحة؛ أنَّ قوله تعالى:﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ الذي هو أَهَمُّ أدعية القرآن، بل هو خلاصة جميع الأدعية الواردة في الكتب السماوية؛ قد أجمع أهل العلم قاطبة أن المجاهدين إذا قُتِلُوا واسْتُشْهِدُوا في سبيل الله كانوا داخلين في جملة من أنعم الله عليهم، واستندوا في ذلك إلى قوله تعالى:﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ النساء: ٦٩ ، فهؤلاء المجاهدون الشهداء، داخلون فيمن أمرنا الله تعالى كل يوم، وفي كل صلاةٍ أن نسأله الهداية لصراطهم، وافترض الله على كل مسلم في الأرض اقتفاء سبيلهم، فمن هذا الوجه وأشباهه كانت سورة الفاتحة سورةً جهاديَّةً بامتياز.

ولقد أفادني أحدُ إخواني الأبرار - وله مني جزيل الشكر والثناء والدعاء - أنَّ جميع تمنيات الذين أنعم الله عليهم تفيئ إلى مصير (الشهداء المقتولين في سبيل الله)، بدليل أن سَيِّدَ الأنبياء والمرسلين والعالمين، وأفضل من أنعم الله عليهم إلى يوم الدين، قد تمنى أن يصير إلى هذا الصنف الخاصِّ من المنعم عليهم، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيها وغيرهما أن حبيبنا الشهيد - عليه الصلاة والسلام - قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ».

ومما يُؤَيِّدُ جهادية سورة الفاتحة أيضًا ما أفادني به هذا الأخ الكريم - جزاه الله خير الجزاء -، أن الغضب الواقع على اليهود والنصارى المعتدين قد ترجمه نبينا الشهيد - عليه الصلاة والسلام - في حياته بجهادهم وقتالهم ولعنهم، والتحريض والدعاء عليهم، حتى كَانَ مِنْ آخِرِ مَا تَكَلَّمَ بِهِ قبل استشهاده - عليه الصلاة والسلام - قوله: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِدًا» رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وفي روايةِ مالك في الموطأ: «قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، قال العلامة الزرقاني في شرحه للموطأ في تفسير معنى (قاتل الله): (أَيْ: قَتَلَهُمْ، لأَنَّ فَاعَلَ يَأْتِي بِمَعْنَى فَعَلَ)، واليهود والنصارى المعتدون داخلون دخولًا أوليًا فيمن أمرنا رسولنا - عليه الصلاة والسلام - بقتالهم بقوله: «اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ، وفِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ...» الحديث رواه مسلم في صحيحه.

ومن المعلوم أن الزمان لن يخلو عن قائم لله بحقِّ الجهاد في سبيله، فالعصابة المجاهدة في سبيل الله هم ورثةٌ للعصابة المجاهدة الأولى التي أنعم الله عليها منذ يوم بدر الكبرى، وقد قال رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللَّه عَلَيهِ وَسَلَّمَ -: «**وَلاَ تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُقَاتِلُونَ** عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، وقال أيضًا: «**لاَ تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ** عَلَى أَمْرِ اللهِ، قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»[4].

[4] أخرجه مسلم في صحيحه.

فإذا كان ذلك كذلك؛ فمن البديهيِّ أنْ يكونَ من وظائف المنعم عليهم في كُلِّ عصرٍ، استدامة العبودية الجهادية في سبيل الله، وإنزال الغضب الجهادي بمن غضب الله عليهم ورسوله وأمر بقتالهم، والمؤمن حينما يدعو كل يومٍ في صلاته بدعاء سورة الفاتحة؛ فهو يدعو الله أن يُصَيِّرَهُ عبدًا مجاهدًا في سبيله، وأن يستعمله في إنزال الغضب الجهادي بأعدائه المعتدين الظالمين، وأن يرزقه الشهادة الصادقة ليفوز بالإنعام السرمدي، فاللهم لك الحمد أنْ علَّمتنا في فاتحة كتابك أعظم ما نطلبه وكيف نطلبه، ونسألك اللهم أن تنعم علينا بشهادة خالِصَةٍ في سبيلك، وقتلًا في بلد رسولك .. آمين.

المِيْمَاتُ السَّبْعُ المُمَهِّدَاتُ لِتَدَبُّرِ القُرْآن

جرت عادة علمائنا في شبه القارة الهندية وخراسان، عند البدء بتأويل سور القرآن، أن يذكروا **(المقدمات السبع)** الممهدات للفهم السليم للسورة، والتدبر العميق لها، وهي: **(مقصود السورة، ومسمياتها، وميقاتها، ومناسباتها، ومضامينها، ومُخُّهَا، ومميزاتها)**، وبإدراك هذه **(المقدمات السبع الممهدات)** وفهمها قبل البدء بدراسة سور القرآن، يَسْهُلُ على المتدبر الإحاطة بعلوم السورة وتدبرها بوجه سديد، وقد درج علماء التفسير في شبه القارة الهندية، وأفغانستان، وبلاد ما وراء النهر، على العناية بهذه المقدمات الممهدات على النسق الآتي:

1- **مقصود السورة:** وهو الهدف الأساسي، والركيزة المحورية التي أُنزلت لأجلها السورة، ويسميها شيخنا الشهيد دوست محمد النورستاني - تقبله الله – بـ (مُخّ السورة).

2- **مناسبات السورة:** وذلك بربط السورة بما قبلها وما بعدها من سور القرآن، وبربط مباحث السورة ومواضيعها وآياتها بعضها ببعض، كي تبدو السورة الواحدة لدارسها كالبيت الواحد المحاط بسور كبير، ويكون القران كله لدارسه كالمدينة الكبيرة المتناسقة، وحتى يكون الْقُرْآن كُله فِي عين دارسه كالسورة الْوَاحِدَة، وقد فصَّل القول في هذه النظرية جماعات من العلماء، ومنهم العلامة الهندي الفراهي - رحمه الله - في كتابه (دلائل النظام) وتفسيره (نظام القرآن).

3- **مسميات السورة:** وهي أسماؤها الواردة في الكتاب والسنة، وكلام سلف الأمة.

4- **ميقات السورة:** وذلك ببيان وقت نزولها وزمانه، ومن المعلوم أنَّ مواضيع السور المكية ومقاصدها تختلف عن مواضيع ومقاصد السور المدنية، وبإدراك ذلك يتم استشعارُ وتحسُّسُ الظرف التأريخي الذي نزلت أثناءه آيات السورة، فيسهل للدارس حينئذٍ اكتشاف أسرارها.

5- **مضامين السورة:** وهي المواضيع والمباحث التي اشتملت عليها السورة وتضمنتها وتكلمت عنها في آيات معدودات.

6- **مُلخص السورة:** وهي خلاصتها وحاصلها، ويكون بتلخيص مضامينها ومواضيعها وأبوابها وفصولها ومباحثها.

7- **مميزات السورة:** وهي الأمور التي اختصت بها السورة وتميزت بها عن غيرها من سور القرآن.

وسأذكر هنا ما يتعلق منها بسورة الفاتحة، مُلخصًا ذلك في نقاط، كي يسهل على المتدبر قطف الثمرة بلا عناء.

المقدمات السبع الممهدات لفهم سورة الفاتحة

- **مقصود السورة: التعريف بالله، وبالطريق الموصل إلى الله، وبالحال بعد القدوم على الله - جل جلاله - .**

وهكذا جُل الكتب لا تخلو عن مقدمة تشتمل على تعريف بمؤلفها، وطريق للوصول إليه، والتواصل معه، وبيان سبب تأليفه، والغاية المقصودة منه.

والقرآن أجل الكتب على الإطلاق، إذ هو كلام ربنا عز وجل، وفضلُ كلامِ الله وعلوُّ خطابه على خطاب خلقه، كفضله سبحانه وتعالى وعلوِّهِ على جميع خلقه، فلهذا **كان مقصود القرآن أصالةً (إيصال المخلوق إلى خالقه وربطه به).**

قال الإمام ابن رجب - رحمه الله - في تفسيره للفاتحة: (**الله سبحانه وتعالى إنَّما أرسَل الرُّسَلَ وأنزلَ الكتبَ لدُعائِهِ الخلق إلى مَعرفتِهِ وتوحيدِهِ، وعبادتِهِ، ومَحبتِهِ، والقُربِ منهُ، والإنابةِ إليه؛ هذا هو مقصُود الرِّسالة، ولبُّها، وقُطبُ رحاها الذي تدور عليه، وما ورَاءَ ذلك فإنَّها مُكملاتٌ، ومُتمماتٌ، ولواحقٌ؛ فكلُّ أحدٍ مفتقِرٌ إلى معرفة ذلك عِلمًا، والإتيانِ بهِ عملًا، فلا سَعَادةَ للعَبدِ ولا فلاحَ ولا نجاةَ بدون هذين المقصدَيْن، وسورةُ الفاتحةِ مُشتملةٌ على مَقاصِد ذلك).**

- **مسميات السورة**[5] : أشهر أسمائها: (**سورة الفاتحة**)؛ لافْتِتَاحِ الكِتَابِ العَزِيزِ بها، ولافتتاح الصلاة بهَا، وَتُسَمَّى أيضًا: **(أُمُّ الكِتَابِ)**؛ لأنهَا جَمَعَتْ مَقَاصِدَهُ الأَسَاسِيَّةَ، وانبثقت منها كل مقاصد القرآن، وَتُسَمَّى أَيْضًا: **(السَّبْعُ المَثَانِي)** و **(سورة الحَمْدُ)**، ولَهَا أسماء أخرى وأوصاف كثيرة، ذكر منها السيوطي في (الإتقان) خمسًا وعشرين، وأوصلها شيخنا العلامة المفسر عبد السلام الرستمي إلى أكثر من ذلك[6]، **وهي بالإجماع أكثر سور القرآن أسماءً وأوصافًا**، لكن من أشهرها ثَلَاثَةُ أَسْمَاءٍ أخرى وهي: **الوافية، وَالكافية، والشافية.**

- **ميقات السورة**: **<u>الراجح أنها مكية</u>**[7]، وهو **قول الجمهور، واختيار ابن عطية والبغوي وابن تيمية وابن كثير وآخرين**، وروي عن بعض السلف أنها مدنية، وقيل بل نزلت بمكة والمدينة مرتين لشرفها، **وأوهن الأقوال مما لا دليل عليه ولا تعليل؛ قول من قال بأن نصفها نزل بمكة ونصفها الآخر بالمدينة.**

- **مضامين السورة:** هذه السورة سبعُ آياتٍ بالإجماع[8]، وقد اشتملت على مقاصد القرآن السبعة، وهي العلوم القرآنية التي تُثَنَّى وتتكرَّرُ في سائر سور القرآن، ولعل ذلك السبب الرئيس في سر تسميتها بالسبع المثاني، فهاك بيانها :-

1- **علم التعريف بالله** (بأسمائه وصفاته). **(الإلهيات)**

---

[5] الأصل في جميع أسماء سور القرآن أن تكون توقيفية بتوقيف من الشارع، سواء من الله -عز وجل- أو من نبينا -صلى الله عليه وسلم-، وقد جاءت الأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة والمقطوعة في تسمية كثير من السور بأسماء عديدة، منها ما هو توقيفي، ومنها ما هو اجتهادي، ومنها أوصاف لا أسماء، دخل اجتهاد الصحابة والعلماء في وسم السور بها، ولكل اسم ووصف دليل أو تعليل يذكره العلماء في كتب التفاسير وعلوم القرآن.

[6] ذكر ذلك في كتابه (التبيان في تفسير أم القرآن)، وفي تفسيره الحافل (أحسن الكلام)، وفي (الموسوعة القرآنية والفرائد الربانية)، وكل ذلك مطبوع بمدينة بيشاور الباكستانية.

[7] أمارات مكيتها أَجَلُّ من أمارات من قال بمدنيتها، فإنها قصيرة آياتها، مفتتحة بالثناء والتمجيد والتوحيد والتعبيد، وخطابها عن البعث والمعاد والنشور، وتقرير صفات الله الحسنى، وإفراده بالعبادة والاستعانة والدعاء، والإرشاد إلى طلب الهداية إلى الدين الحق والصراط المستقيم، وذلك كله من خصائص المكيات في الأعم الأغلب، وقد ذكر ابن عطية في تفسيره أن الصلاة قد فرضت بمكة، ولم يحفظ السلف أن هناك صلاة بمكة كانت بغير قراءة الفاتحة، وقال السيوطي في الإتقان: (الأكثرون على أنها مكية...واستدل لذلك بقوله تعالى {ولقد آتيناك سبعا من المثاني}، وفسرها -صلى الله عليه وسلم- بالفاتحة كما في الصحيح، وسورة الحجر مكية بالاتفاق، وقد امتن فيها على رسوله بسورة الفاتحة، فدل ذلك على تقدم نزول الفاتحة عليها، إذ يبعد أن يمتن عليه بما لم ينزل بعد)، والله تعالى أعلم.

[8] نقل الإجماع على ذلك جماعات من المفسرين كابن عطية وابن تيمية وابن كثير وغيرهم، وحكموا بشذوذ الأقوال الأخرى.

-2 **علم التعريف بأحكام الله** (العبودية). **(التشريعات)**

-3 **علم التذكير بأيام الله** (اليوم الآخر). **(الأخبار والقصص والميعاد)**

-4 **علم التعريف بالطريق الموصل إلى الله** (الصراط). **(السلوكيات)**

-5 **علم التعريف بآلاء الله** (الرحمة والهداية والإنعام). **(الوعد)**

-6 **علم التعريف بحال أولياء الله** (المنعم عليهم). **(النبوات)**

-7 **علم التعريف بحال أعداء الله** (المغضوب عليهم والضالين). **(الوعيد)**

ولقد تمت كلمة ربنا - جل جلاله - في القرآن كله على نوعين :-

-1 **النوع الأول: عِلْمِيَّات: وهي (الأخبار)**، وجل هذا من القرآن المكي، وهو أكثر آي الكتاب.

-2 **النوع الثاني: عَمَلِيَّات: وهي (الأحكام)**، وجُلُّها من القرآن المدني.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾ الأنعام: ١١٥

قال ابن كثير في تفسيره: (أَيْ صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ، وَعَدْلًا فِي الْأَحْكَامِ، فَكُلُّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَعَدْلٌ وَهُدًى).

وروى الطبري عن قَتَادَة قوله: (صِدْقًا فِيمَا قَالَ، وَعَدْلًا فِيمَا حَكَمَ).

فالأحكام العملية هي الأوامر والنواهي، وهذه هي التشريعات الفقهية والسلوكية، وخلاصتها في أركان الإسلام الخمسة.

وأما الأخبار العلمية فهي :-

-1 إما **خبر عن الخالق**، أو عن أسمائه وصفاته وأفعاله، فهذه هي العقائد الإسلامية، وخلاصتها في أركان الإيمان الستة.

-2 وإما **خبر عن المخلوق**، كالأنبياء والملائكة والجنة والنار ونحو ذلك، وهذه الأخبار تساق في آي القصص والوعد والوعيد.

ففرض المؤمن في الأخبار التصديق، وفرضه في الأحكام التطبيق.

والمقاصد السبعة المثاني في سورة الفاتحة متفرعة من هذه الأصول الثلاثة التي هي أثلاث القرآن العظيم كما قرر ذلك الإمام ابن سريج - رحمه الله - ونصره شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في رسالته (جواب أهل العلم والإيمان)، وهي كما تقرر سابقا:

-1 **علم التعريف بالله.** (علم التوحيد)

-2 **علم التعريف بأحكام الله.** (علم الأحكام)

-3 **علم التذكير بأيام الله.** (علم القصص)

ولهذا لما كانت سورة الإخلاص تختص بذكر علم التوحيد والعقيدة فحسب، وهو العلم بالله وأسمائه وصفاته وسائر أفعاله؛ كانت كما جاء في الخبر الصحيح تعدل ثلث القرآن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته (جواب أهل العلم والإيمان): **(وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ أَحْسَنَ الْوُجُوهِ أَنَّ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ: تَوْحِيدٌ، وَقَصَصٌ، وَأَحْكَامٌ، وَهَذِهِ السُّورَةُ (الإخلاص) صِفَةُ الرَّحْمَنِ، فِيهَا التَّوْحِيدُ وَحْدَهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، وَالْكَلَامُ**

نَوْعَانِ: إِمَّا إِنْشَاءٌ، وَإِمَّا إِخْبَارٌ، وَالْإِخْبَارُ إِمَّا خَبَرٌ عَنِ الْخَالِقِ، وَإِمَّا خَبَرٌ عَنِ الْمَخْلُوقِ، فَالْإِنْشَاءُ هُوَ الْأَحْكَامُ كَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْخَبَرُ عَنِ الْمَخْلُوقِ هُوَ الْقَصَصُ، وَالْخَبَرُ عَنِ الْخَالِقِ هُوَ ذِكْرُ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ سُورَةٌ هِيَ وَصْفُ الرَّحْمَنِ مَحْضًا إِلَّا هَذِهِ السُّورَةَ).

- **ملخص السورة:** سورة الفاتحة فيها **حقان لله - عز وجل -،** هما: **حمده وعبادته**، **وفيها حقان للعبد** هما: **سؤاله واستعانته**.

وعليه فسورة الفاتحة خلاصتها ثلاثية: فأولها تحميد وتمجيد، وأوسطها: توحيد وتعبيد، وآخرها: دعاء ذي العرش المجيد.

والخلاصة أن الله تعالى قد قسم الفاتحة إلى قسمين اثنين:

1- فالقسم الأول: **قسم الخالق - جل جلاله -**، وهو: **(قسم الثناء)**، فأوله التحميد، وآخره التوحيد.

2- والقسم الثاني: **قسم المخلوق**، **وهو: (قسم الدعاء)**، وأوله طلب الإعانة، وآخره طلب الهداية.

أمَّا وجه خلاصة السورة ومطابقتها لعنوان هذا الجزء، فأقول وبالله التوفيق: إنَّ سورةَ الفاتحةِ مُفْتَتَحَةٌ بتعليم العباد طريقة التذلل والتبتل لله - جل جلاله - بحمده وتمجيده وتوحيده والثناء عليه، مع تجديد البيعة لله على دوام عبادته وتوحيده والاستعانة به، من أجل أن يوفقنا ويهدينا ويوصلنا لصراطه المستقيم، الذي هو صراط النبيين والصديقين، والشهداء المجاهدين، والأتقياء الصالحين، الذين أنعم الله عليهم بالإيمان والجهاد واليقين، واستعملهم في إنزال الغضب الجهادي بقتال اليهود المغضوب عليهم والنصارى الضالين.

وإنَّ **مِن أعظم مطالب سورة الفاتحة وأسرارها: (صناعة الغضب الجهادي)، فمن المدلولات المخبوءة بالسورة: الدعوة لجهاد اليهود وقتالهم، وإنزال الغضب الجهادي بهم، لأن قوله تعالى:﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ ﴾ إفصاحٌ لهذا الغضب باسم المفعول، فيفيد كما أفادنا بذلك شيخنا النورستاني - تقبله الله - أنَّ الغضبَ يجب أن يستمر نزوله عليهم من الله ورسوله وأوليائه إلى قيام الساعة، وفيه أيضًا إشارة إلى وجوب البراءة من اليهود، ومعاداتهم وبغضهم، وتَنَكُّبِ صراطهم، وأول مصاديق الغضب عليهم يكون بلعنهم وقتال المعتدين منهم في سبيل الله، وفي إثبات صيغة اسم المفعول وحذف الفاعل إشعارٌ بإهانتهم، وتحقير شأنهم، وتصغير أمرهم، فلا يجوز إكرامهم ولا إنزالهم إلا المنازل التي ارتضاها الله لهم.**

وقد جاء تفصيل هذا المطلب الجليل المجمل في سورة الفاتحة، في سورتي البقرة وآل عمران، فسورة البقرة اخْتُصَّتْ بالتحريض على اليهود المغضوب عليهم، وسورة آل عمران اختُصَّتْ بالتحريض على النصارى الضالين، وقد فهم ذلك جمعٌ من علمائنا الكرام ونصُّوا عليه في تفاسيرهم ومصنفاتهم، ومنهم الشيخ العلامة ابن أحمذيَّه الحسني - رحمه الله - (ت:1387هـ) في منظومته الرائدة الباذخة التي أسماها: (مراقي الأوَّاه إلى تدبُّر كتاب الله)، حيث قال عند قوله تعَالَىٰ:﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤ ﴾ البقرة: ١١٤

هَذَا الكَلامُ إنْ تَأَمَّلْتَ خَبَرَ * بِمَعْنَى الأَمْرِ أَيْ: (أَخِيفُوا مَنْ كَفَرْ)**
نَزَلَ ذَا إِذْ مَنَعَ النَّصَارَى * البيتَ بَيْتَ مَقْدِسٍ وَصَارَا**

مَلْقَى الْأَذَى وَحِيْنَ طَهَ رَجَعَا *** عَامَ الحُدَيْبِيَّةِ لَمَّا مُنِعَا
والسَّعْيُ في الخَرَابِ مَنْعُ *** فِيهَا، عَدَدْتُكَ مُوجِبَاتُ الخُسْرِ
الذُّكْرِ

ومن المطالب العالية في سورة الفاتحة وأسرارها أيضًا: (صناعة الإنعام السرمدي)، فإن السورة من مطلعها لمقطعها غايتها الكبرى أن تَصْطَنِعَ في المرء كَمَالًا في التوحيد والجهاد والعبودية، وكَمَالا في الخضوع والتبتل والألوهية، وكمالا في التضرع والاستعانة والتذلل، وكل ذلك صراطٌ مستقيمٌ موصلٌ للهداية الكاملة، الموصلة لكمال النعيم المقيم في فراديس الجنان، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾ ﴾ البقرة: ٢١٣ – ٢١٤، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾ ﴾ آل عمران: ٥١، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ ﴾ يس: ٦١، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾ الأنعام: ١٦١، وإن من المعلوم أنَّ الشهداء في سبيل الله داخلون في جملة الذين أنعم الله عليهم بالإنعام السرمدي، فالحمد والثناء والتمجيد والتوحيد الذي تم استهلال السورة بها، صِرَاطٌ موصلٌ للهداية الإلهية، ومن هداية الله لعبده هدايته لصراط الجهاد في سبيله، والجهاد في سبيل الله صراطٌ مستقيمٌ موصلٌ للشهادة، والشهادة في سبيل الله صراطٌ مستقيمٌ موصلٌ للنعيم السرمدي، وحتى النصر على الأعداء في الجهاد مرهونٌ أيضًا بالأخذ بكتاب الله المبين، والهداية لصراطه المستقيم، كما قال تعالى عن موسى وهارون - عليهما السلام -: ﴿ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ ﴾ الصافات: ١١٦ – ١١٨.

لقد علمني أستاذي الشهيد دوست محمد النورستاني - تقبله الله - أنَّ من أعلى وظائف القرآن العظيم؛ صناعة أهل الإيمان، واصطناع المنعم عليهم من أهل الرحمن، فكل سورة في القرآن بل كل آيةٍ فيه، هي صانعة تصنع على عين الله في عباد الله شيئًا من مقتضيات الإيمان ومحبوبات الرحمن، والوحي السماوي من وظائفه الكريمة ومهاته العظيمة هذه الصناعة الربانية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ طه: ٣٩، **والقرآن وإن كان شفاءً ورحمةً للمؤمنين كما** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ الإسراء: ٨٢، **فإنَّ من أكبر مصاديق هذه الرحمة أنه مصنعٌ يصطنع الله به عباده المهرولين في سبيله، الذين يجاهدون به جهادا كبيرا، فيذهبون بآيات الله ليجاهدوا بها طغاة الأرض،** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ طه: ٤١ - ٤٣، ولهذا يُقال في سورة الفاتحة قولا جامعًا: أنها **تحقق صنوف الكمالات الإنسانية والروحية والفكرية والعملية والمنهجية، فسورة الفاتحة من حَقَّقَهَا بحقائقها فقد حَقَّقَ الكمالات الدنيوية والأخروية**، ووَجهُ ذلك؛ أنَّ سورة الفاتحة لَمَّا كانت مبنيةً على معاني الكَمَالِ والشُّمُولِ لله عز وجل، واختصاصه الكلي بالعبادة والاستعانة، وكان نصفها الأول مبنيًّا على إثبات استحقاق الله تعالى واختصاصه بالكمال المطلق، **لزم اشتمالها على مايُحَقِّقُ للفرد المسلم، والجماعة المسلمة، والأمة المسلمة من الكمال والجمال والجلال بحسب تحقيق**

مطالب سورة الفاتحة في النفوس، وعليه فسورة الفاتحة صانعةٌ لكمال العبودية، وسورة الفاتحة من أولها لآخِرِها تحمل المسلم على مولاته لأُمَّتِهِ الإسلامية بالانتماء لها، والدفاع والذود عنها، وتحمله على سلوك سبيل الذين أنعم الله عليهم، بالتذلل بين يدي الله - جل جلاله - بالتحميد والتمجيد والتعبيد، كي يمن الله عليه بالإعانة والهداية لصراط المنعم عليهم في كل زمان ومكان، بمولاتهم والانتماءِ إليهم، وسلوك سبيلهم في العلم والدعوة والجهاد، فهم الطائفة المنصورة والفرقة الناجية، السائرة على صراط النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وحسن أولئك رفيقا، فاللهم أدخلنا فيهم، واجعلنا منهم، واسلك بنا سبيلهم .. آمين.

- **مناسبات السورة:** سورة الفاتحة حسب ترتيب المصحف لم يسبقها من القرآن أي سورة، فلهذا **لا مناسبة لها بسورة قبلها**، غير أنَّ على القول المرجَّح من أنَّ البسملة آية منفصلة مستقلة، وليست بآية من سورة الفاتحة، يمكننا القول بوجود مناسبة قبلية لسورة الفاتحة مع آية البسملة وجملة الاستعاذة، ويظهر بالتأمل أن قول العبد: (أَعُوذُ بِاللهِ من الشيطان الرجيم)، فيه **إقرارٌ من العبد بضعفه وعجزه والتجائه بربه سبحانه وتعالى،** فهو تعالى وحده القادر على أن يدفع عن العبد شر هذا الشيطان الرجيم، ولا سبيل للقرب من الله - عز وجل - إلا باعتراف العبد بعجزه وضعفه.

وقد دلت الاستعاذة على أن الإنسان يخوض صراعًا وجهادًا مع الشيطان، وهو جهادٌ كبيرٌ لا فلاح للإنسان فيه ولا نجاح إلا باللجوء إلى ربه وخالقه، ولهذا ناسب أن تأتي البسملة بعد الاستعاذة، والعلاقة بين الاستعاذة والبسملة علاقة لطيفة؛ **وهي أن العبد إذا استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، فقد ابتعد بعون الله من الشيطان الذي يريد أن يصده عن ذكر الله، فكان من المناسب أن يتصل الإنسان بالرحمن الرحيم الذي يريد لعباده الخير والوصول إليه في دار السلام.**

والفاتحة كما قيل آنفا قد انطوت على أسرار الشرائع السماوية كلها، ومقاصد الكتب الإلهية جميعها، ومقصود الشرائع السماوية كما قيل آنفا: (**إيصال المخلوق إلى خالقه**)، **لهذا كان من أجَلِّ مقاصد إنزال سورة الفاتحة؛ تعليم العباد المفاتيح الأربعة الموصلة إلى الله - جل جلاله -، وهي: (التحميد، والتمجيد، والتوحيد، ودعاء ذي العرش المجيد).**

إن سورة الفاتحة **بمنزلة ورقة الإرشادات التي تُبَصِّرُ العبد بكيفية الوصول إلى الله - عز وجل -، والقرآن كما قال الله تعالى دواء وشفاء ورحمة، وكل دواء يصحبه في الأغلب ورقة إرشادات وهدايات، فيها بيانٌ وتعريفٌ بصانع الدواء، وأسباب صناعته، وكيفية استعماله، ومحاذير ينبغي العمل بموجبها كي يتأتَّى الشفاء الناجع**، وهكذا الإنسان خلقه الله وصنعه ليؤدي وظيفته الجهادية في الحياة، فأرسل له هذا الكتاب ليبين له مقصود خلقه، وأسباب وجوده، وليعرف ما هي وظيفته في الحياة، مع جملة من الإرشادات والمحاذير التي يحصل بها الفلاح في الدنيا والآخرة، وصدق الله إذ يقول:﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ النجم: ٢٣.

هذه سورة الفاتحة، ولولاها لما تيسَّر فهم مقاصد القرآن، فسورة الفاتحة مفتاح المعاني القرآنية، والفاتحة كما يقول العلامة القرآني محمد عبد الله دراز - رحمه الله -، أشبه ما تكون بخطاب يقدمه العبد بين يدي ربه، طالبا منه الهداية والإنعام، فجاء القرآن كله من بعد الفاتحة جوابًا من الله لخطاب الطلب، فأبان الله لعبده سبيل الهداية والإنعام، وسبيل الوصول لدار السلام، فكأن

العبد حين يدعو ويقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، يأتيه الجواب مباشرة من ربه بقوله:﴿ الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ ، أي: (إن أردت أيها العبد الهداية لصراطي المستقيم، فهو في التزام هذا الكتاب القويم والعمل به)، ولهذا قال بعض العلماء: (**لو نزعت سورة الفاتحة من القرآن؛ لاستعجم على العباد معرفة سبب نزوله، ولتعسر عليهم فهم مقصوده**).

هذا حاصل ما يمكن قوله في المناسبات والربط المعنوي لسورة الفاتحة لما بين يديها وما خلفها، والله تعالى أعلم.

وأما من جهة ربط آيات السورة بعضها ببعض؛ فيُقال: لما كان العبد في الدنيا محتاجا في سفره الأخروي إلى جلب المصالح ودرء المفاسد، ناسب تقديم الاستعاذة لدرء شرور الشيطان ومفاسده عنه، ثم التثنية بالبسملة لجلب رحمات الله وأعطياته وبركاته إليه، ودرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، فإذا تحقق درء مفسدة الشيطان، وتحققت مصلحة القرب من الرحيم الرحمن، ناسب بعد ذلك أن يحمد العبد ربه، ويثني عليه ويمجده، جزاء هذه المنن الكريمة والنِّعَمِ العظيمة، فيقول حينئذ:﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾، فإذا جاوز العبد مقام الثناء والتحميد، وبلغ مقام التعظيم والتمجيد، حال كونه متحدثًا بلسان حال الغيبة، ناسب بعد ذلك أن يُوَحِّدَ الله عز وجل، وأن يتكلم معه بلسان المشاهدة والحضور؛ فيقول حينئذ:﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ ، واعلم أن المتدبر لقوله تعالى:﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ ﴾ سيدرك لا محالة أنه مسافر إلى الله تعالى، وأنه منتقل من دار الدنيا إلى دار الآخرة، وأن أمامه حسابًا وجزاءً لا محيص عنه، فلابد له حينئذٍ من زادٍ واستعدادٍ بالعبادةِ والاستعانة، فلهذا ناسب أن يقول عقب ذلك:﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾.

ثم لما كان السفر طويلًا، والطرق كثيرة ومختلفة، والناس قد تاه أكثرهم في الطريق وضَلُّوا؛ كانت الحاجة ماسةً للهداية إلى أفضل الطرق وأحسنها، ولا ينبئكَ مثلُ خبير، فأرشدنا الله تعالى وَعَلَّمَنَا طريقةَ دعائه وسؤاله الهدايةَ لأفضل الطرق وأحسنها وآمنها، فيقول العبد حينئذٍ:﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، ومن البديهي أن عناء السفر ومشقته بحاجة إلى مزيد إرشادات، وكذا إلى أعوانٍ وأصحاب، لذلك ذكر تعالى معالم الطريق، والرفقة الصالحة في هذا السفر، فقال تعالى:﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ ، وهم الأجناس الأربعة التي أنعم الله عليها بكل خير في الدنيا والآخرة، وهم المذكورون في قوله تعالى:﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ﴾ النساء: ٦٩، فالأنبياء للطريق أَدِلَّاء، والصديقون والصالحون والشهداء للسفر رُفَقَاء، ولا يخلو طريق سفر من قُطَّاع طرق، ولا يخلو أيضًا عن منحنياتٍ قد تنحرف بالسالك إلى غير القصد؛ فلهذا حذَّرَ الله تعالى عباده منهم ومن انحراف طريقهم فقال تعالى:﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

وكان الشيخ العلامة المفسر عبد السلام الرستمي، والشيخ العلامة المجاهد الشهيد دوست محمد النورستاني الأفغاني - رحمهما الله - يشيران في هذا المقام إلى مناسبات لطيفة، وربط معنوي ولفظي، فمن جهة الربط المعنوي كان شيخنا الرستمي يرى أن

لكل سورة دَعْوَى هي أشبه بِدَعَاوَى المُدَّعِينَ في القضاء، فكان يرى أن دَعْوَى سورة الفاتحة: (الحمد لله) أي إثبات أن الحمد المطلق حق خاص بالله، ومستحق له وحده دون من سواه.

يقول الشيخان الرستمي والنورستاني - رحمها الله -: (ولإثبات هذه الدعوى ذَكَرَ الله لها ثلاث دلائل، وهي: أنه رب العالمين، وأنه الرحمن الرحيم، وأنه مالك يوم الدين، فمن كان مُتَّصِفًا بهذه الصفات الثلاث، فهو أحق باستحقاق الحمد المطلق له دون أن يشاركه فيه أحد سواه، ومن ثبت له حق الحمد المطلق، فهو أحقُّ بأن يُعْبَدَ وأن يُسْتَعَانَ به، فلذا قال تعالى:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، فلما أذعن العباد لهذه الدعوى وعبدوه واستعانوا به، علمهم الله الدعاء الذي يثبتهم على البقاء مستمسكين بهذه الدعوى العظيمة، فقال تعالى:﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾، لكي نبقى ثابتين على حمده وعبادته والاستعانة به، ولأن الناس في هذه القضية ثلاثة أصناف: مُنْعَمٌ عليهم قائمون بحمد الله، وهم الذين يحبهم الله، ومَغْضُوبٌ عليهم جاحدون لحمد الله، وضالين تاهوا وضاعوا في مسألة الإله الواحد المستحق للحمد، فجهلوا أن الله وحده هو المستحق للحمد المطلق جل شأنه وتعالت قدرته).

هذا ما قاله الشيخ الرستمي من جهة الربط المعنوي، وأما ما قاله من جهة الربط اللفظي بين أسماء السور، فهو معدودٌ مِنْ مُلَحِ التفسير لا من أصوله ولا أركان علومه، وفيه شيء من التَّعَسُّفِ لا يخفى على المتأمل، والشيخ يذهب إلى وجود التناسب في أسماء السور أيضا، ويقول في ربط اسم سورة الفاتحة مع أسماء ما بعدها من السور ما يلي: (**فاتحة** دعائنا: اللهم إياك نعبد وإياك نستعين، فلا نعبد **البقرة** والعجل كما فعل اليهود، ولا نعبد **آل عمران** كما فعل النصارى، ولا نظلم **النساء**، ولا نتعنت بطلب إنزال **مائدة** من السماء، ....) وهكذا إلى آخر سور القرآن (سورة الناس).

هذا ما سمعته من الشيخ - رحمه الله - في دروس التفسير، ولا يخفى ما فيه من التعسف، والله تعالى أعلم بالصواب.

- **مميزات السورة:** وهي **خصائصها الفريدة التي امتازت بها عن سائر السور**، وقد امتازت سورة الفاتحة بما يلي:-
  1- أنها أول سورة في ترتيب المصحف الشريف.
  2- أنها أعظم سورة في القرآن.
  3- أنها اشتملت على خلاصة القرآن، بل هي خلاصة سائر الكتب السماوية.
  4- أنها السورة الوحيدة في القرآن التي يجب حفظها وقراءتها في الصلاة.
  5- أنه لم ينزل مثلها في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في شيء من الكتب والصحف المنزلة.

6- أن الله تعالى قابلها بجميع القرآن فقال تعالى:﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ الحجر: ٨٧.

تفسير سورة الفاتحة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾ الفاتحة: ١

أي: **أبدأ تلاوتي مستعينًا ومتبركًا بكل اسم للإله المعبود بحق دون من سواه.**

وكل سورة بدأت بالبسملة فيقال فيها ما قيل هنا في تفسيرها .

ولفظ الجلالة (الله) معناه: **الإله المألوه**، أي: **المحبوب المعظم المعبود بحق.**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ الفاتحة: ١

أي: **صاحب الرحمة الواسعة الشاملة**، الذي وسعت رحمته كل الأشياء، **فهذه صفة الرحمة الذاتية .**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ الفاتحة: ١

أي: **صاحب الرحمة الدائمة الواصلة**، الذي وصلت ودامت رحمته لمن يشاء، **وهذه صفة الرحمة الفعلية.**

وقد ذكَرَ القرطبي في تفسيره عن **جعفر الصادق - عليه السلام** - أنَّه قال: (**البسملة تيجان السور**)، وهذا يدلُّ على ما اختاره جمعٌ من علمائنا مِنْ أنَّ **البسملة ليست بأول آية من سورة الفاتحة، ولا بأول آية من أي سورة من سور القرآن**، وعليه فالراجح في ذلك ما اختاره جمعٌ من أهل العلم من أنَّ **البسملةَ آيةٌ منفصلةٌ من كتاب الله تعالى؛ أُنزلت للفصل بين السور، وليست بأول آية من أصل كل سورة**، وفي المسألة خلافٌ طويلُ الذيولِ ويحسنُ قَبْضُ عِنان القلم عنه، والكلام مُتَشَعِّبٌ فيه ومبثوثٌ في المطولات الفقهية والتفسيرية، ولا يسع مقام هذا الجزء المختصر لِبَسْطِهِ.

والمجمع عليه بين أهل العلم: أنَّ البسملةَ بعضُ آيةٍ من سورة النمل، وأنها ليست بآيةٍ من سورة براءة.

وثمرة هذا الترجيح؛ أن نقرِّرَ صحة ما ذهب إليه لفيفٌ من أهل العلم **بعدم فساد صلاةِ تاركِ البسملة في الفاتحة**، بناءً على أنَّ البسملةَ ليست آيةً من سورة الفاتحة، **والأحوط للعبد في الصلاة أن يقرأها خروجًا من الخلاف في إبطال الفرض، فصلاةٌ يُجْمِعُ العلماءُ على صحتها، خيرٌ وأولى مِنْ صلاةٍ يُبْطِلُهَا البعض من الأئمة.**

وقد تضمنَّت البسملة ثلاثة أسماء هي أمهات الأسماء الحسنى والصفات العلى، وهي: (**الله**) و (**الرحمن**) و (**الرحيم**)، وهذه الأسماء كما يقول ابن القيم: (**هي أصل الأسماء وأعظمها وأجملها، واسم (الله) هو أعظم الأسماء كلها على الإطلاق، وإليه مرجع الأسماء كلها، لأنه مشتمل عليها جميعاً).**

ومما يحسن التنبيه إليه: أن **القرآن الكريم مَبْنِيٌّ على قاعدة الإجمال قبل التفصيل، والإجمال بعد التفصيل**، وقد أشرت إلى ذلك في مواضع أُخَر من هذه السلسلة، ومن هذا الضرب ما جاء في الأثر: أنَّ الله تعالى أنزل مائة وأربعة كتب، وقد جعل خلاصتها وزبدتها كلها في القرآن، ثم جعل خلاصة مضامين القرآن في سورة الفاتحة، وسيأتي الكلام في خلاصة الفاتحة هل هي في البسملة أم في قوله تعالى:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، والمقصود هنا بيان تعلق هذه القاعدة في الاستعاذة والبسملة، ذلك أن الله تعالى قد شرع لنا أن نستعيذ ونبسمل عند تلاوة القرآن، وفي سورة الفاتحة منها إجمال قبل التفصيل،

بيان ذلك: أنَّ القرآن يشتمل على مقصودين اثنين:

أولاهما: **جلب المنفعة للعبد في الدنيا والآخرة، وخلاصة ذلك كامنٌ في البسملة.**

والثاني: **دفع المضرة عن العبد في الدنيا والآخرة، وخلاصة ذلك كامنٌ في الاستعاذة.**

وقد قُدِّمَت الاستعاذة على البسملة لقانون تقديم الدرء والدفع على الجلب، فدفع المضرة ودرؤها مقدم على جلب المصلحة، كما أنَّ التخلية مقدمةٌ على التحلية، وقد أُجمِلَ ذكرهما في أول القرآن في الاستعاذة والبسملة، ثم فُصِّلَ أمرهما في الفاتحة وما بعدها من سور القرآن، ثم أجمل هذين المقصدين في قصار المُفَصَّل، وسيأتي بإذن الله مزيد بيانٍ وتوضيحٍ لذلك في مواضع أخرى من هذه السلسلة، والله تعالى أعلم وأحكم.

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الفاتحة: ٢

هذه الآية مقصودها: إثبات الكمال المطلق لله عزَّ وجل.

والحمد: وصف المعبود سبحانه بصفات الكمال والجمال والجلال.

فحين نتلو ونقول: (الْحَمْدُ للهِ)؛ فمعنى ذلك: أنَّ ربنا وحده هو المستحقُّ لجميع صفات الكمال والجمال والجلال المطلقة، وقد افتتح الله تعالى كتابه بالحمد؛ لأنَّ الحمدَ أجمع كلمة تُقال في وصف الكمال والجمال والجلال المطلق لله عزَّ وجل.

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ الفاتحة: ٢

أي: **كُلُّ المحامد على صفات الجمال والجلال والكمال، حقٌ خاصٌ بالله وحده.**

فكل صفة جمال أو صفة كمال أو صفة جلال يُحمَدُ بها أحدٌ؛ فالله تعالى أحقُّ بها، وهو أهلٌ لها، وأهلٌ لكل ثناءٍ وشكرٍ وحمد.

ومن معاني الآية: الأمر بالتحميد، أي قولوا: (الحمد لله).

ومقصود الآية: تعليم الخلق طريقة شكر الخالق سبحانه.

والحامدون من خلق الله طبقات، بعضهم فوق بعضٍ في حمدهم وثنائهم على ربهم - جل جلاله -.

لطيفة: قوله: (الحمد لله) ثمانية أحرف كعدد أبواب الجنة الثمانية، فيُرْجَى لمن نطق بهذه الأحرف الثمانية عن صفاء قلب وصدق نية، أن يُدعَى للدخول من أبواب الجنة الثمانية.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الفاتحة: ٢

أي: مربيهم بالنعم، وخالقهم من العدم، ومالكهم ومدبر أمورهم.

والعالمين: جمع عالم، وهم كل من سوى الله .

وحاصل معنى قوله: (الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) أي: **كل المحامد مستحقة لله وحده، لأنه مربي العالم بنعمه، وخالق الخلـق، ومالك ومدبر أمور كل من سواه.**

وفي قوله تعالى: (رَبِّ الْعَالَمِين)، وتخصيص وصف الرب على غيره، وافتتاح الصفات بها قبل صفة الرحمة والملك؛ حِكَمٌ جليلة، ومقاصد راقية، **منها أنّ الربوبية أعظم المقامات أثرًا وتعلقًا بمصلحة العباد، فالإحسان إليهم مِن معاني الرب**، لكون الإحسان داخلٌ في معنى السَّيِّدِ المُرَبِّي.

وفي تقديم الربوبية أيضاً **دليلٌ على أنّ رحمة الله سبقت غضبه**، فلذا لم يُقدِّم (ملك يوم الدين) على (رب العالمين).

وفي قوله: (رَبِّ الْعَالَمِينَ) وعدم قوله: (ربِّ الناس) أو (ربِّ الدنيا والآخرة) فوائد جمة، منها إفادة كمال الله عز وجل، فإنَّهُ ربٌ للعالمين جميعًا، إنسًا وجنًّا وحيوانات، والعالَمون كُثُر لا يُحصَون، ففي البحر عوالم لا يحصيها إلا الله، وفي الأرض والسماء عوالم لا يحصيها إلا الله عزَّ وجل، فهذا يُفيد كمال ربوبيته سبحانه وتعالى، ولو قال: (الناس) لما كان ذلك كمالًا في مدلول الآية، **والسورة كلها في معاني الكمال لله تعالى، فناسب أن يُسَاقَ ويُؤتَى فيها بالألفاظ الدالة على الكمال المطلق.**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الفاتحة: ٣

أي: وهذا الإله المربي هو صاحب الرحمة الواسعة الشاملة التي وسعت كل شيء.

ومقصود الآية: **بيان كمال الله عزَّ وجل باتصافه بالرحمة والرأفة والحنان بعباده.**

ولذلك جاء في الخبر القدسي الصحيح أن المصلي إذا قال: (الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)، يقول الله تعالى: **«أثنى عليّ عبدي».**

وفي الجمع بين الاسمين (الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) مع دلالتها على صفة واحدة وهي الرحمة، فائدة جليلة نَبَّهَ عليها الإمام ابن القيم - رحمه الله - وسبقت الإشارة إليها في تأويل البسملة، وهي أنَّ اسم (الرحمن) دَالٌّ على الصفة القائمة بذات الله عزَّ وجل (الرحمة الذاتية)، وأما اسم (الرحيم) فهو يدل على صفةٍ فعليةٍ دَالَّـةٍ على ديمومِيَّة وصولها للمخلوق، فهي أثر الرحمة الواصلة إلى المخلوق (الرحمة الفعلية)، **وقد دلت صفة الرحمانية ولفظة (الرحمن) أيضًا على الكمال في الإرادة، كما دلت صفة الرحيمية ولفظة (الرحيم) على الكمال في القدرة.**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ الفاتحة: ٤

أي: وهذا الإله المعبود وحده هو الملك المالك ليوم القيامة الذي فيه الجزاء والحساب على الأعمال.

ومقصود الآية: **بيان كمال جلال الله سبحانه مجدًا وسلطانًا وقدرةً وتصرفًا.**

ولهذا جاء في الحديث: «فإذا قال العبد: مالك يوم الدين، **قال الله: مجّدني عبدي»، أي: عَظَّمَنِي.**

وفي قوله: (**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**) قراءتان صحيحتان متواترتان عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، وهي: (مالك) و (ملك)، **وتَعَدُّدُ القراءات يُفِيدُ تَعَدُّدَ المعاني كما هو مُقَرَّرٌ في قواعد التفسير.**

فالمعاني تحت كلمة (ملك) تُفيد كمال القوة والسلطة والجلال والعظمة والملك.

والمعاني تحت كلمة (مالك) تُفيد كمال التصرُّفِ التامّ، وامتلاك النفعِ والضرِّ التامّ.

فله سبحانه كمال السلطة وكمال التصرف في كل شيء، بخلاف الخلق فقد يكون في الدنيا من هو (مَلِكٌ) لكنه ليس بـ (مالك)، أو العكس كما هو مشاهد، ففي الدول من حولنا ملوكٌ لكنْ ليس لهم كمال التصرف حتى في ممالكهم والله أعلم.

أمّا قولنا: (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) و (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) فهي تُحقق لله تعالى المعنيين الجميلين؛ الجلال والعظمة والسلطان، وتُحقق معنى النفوذ والتصرُّف التام له سبحانه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الفاتحة: ٥

إذا بلغت أيها المبارك هذا الموضع من سورة الفاتحة، فأنِخ مطاياك عندها تدبرًا وتفكرًا، فهي مَحَطُّ السورة وقاعدتها وأساسها، وهذه الآية **أعظمُ آيةٍ في كتاب الله بعد آية الكرسي، لكونها اشتملت في مضمونها على القرآن كله، فهي عمود سورة الفاتحة وعمود جميع القرآن**، ولذلك قال بعض السلف: (**الفاتحة سرُّ القرآن، وسرُّها هذه الكلمة: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**)، وقال الإمام ابن تيمية الحفيد -رحمه الله-: (**هاتان الكلمتان تجمعان معاني الكتب المنزلة من السماء**)،ا في (منهاج السنة): (**قَالَ تَعَالَى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ عَابِدًا لِلَّهِ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُسْتَعِينًا بِهِ، وَلِهَذَا كَانَ هَذَا فَرْضًا عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَقُولَهُ فِي صِلَاتِهِ، وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الرَّبِّ، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِائَةَ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةَ كُتُبٍ، جَمَعَ سِرَّهَا فِي الْأَرْبَعَةِ، وَجَمَعَ سِرَّ الْأَرْبَعَةِ فِي الْقُرْآنِ، وَجَمَعَ سِرَّ الْقُرْآنِ فِي الْفَاتِحَةِ، وَجَمَعَ سِرَّ الْفَاتِحَةِ فِي هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، وَلِهَذَا ثَنَّاهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ، كَقَوْلِهِ: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}، وَقَوْلِهِ: {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}، وَقَوْلِهِ: {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ}، وَقَوْلِهِ: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ**) ا.هـ.

وقال الإمامُ المفسِّرُ ابن كثير - رحمه الله -: (**والدين يرجع كله إلى هذين المعنيين**).

وقد سمعت قولا آخر في هذه المسألة من شيخنا العلامة المجاهد نور الهدى السواتي - رحمه الله - في مجلس ختمٍ لتفسيرِ القرآنِ الكريم بأفغانستان، فقرَّرَ فيه نظرية الإجمال والتفصيل في القرآن، فقال: (إن **القرآن إجمالٌ لجميع الكتب السماوية، والفاتحة إجمالٌ للقرآن، والبسملةُ إجمالٌ للفاتحة، والباءُ إجمالٌ للبسملة، وخلاصةُ البسملةِ في الباء، والباء للإلصاق** كما قال سيبويه، وعليه فخلاصة جميع شرائع الأنبياء من عقائد وأخلاق وعبادات وسلوكيات في (**إيصال المخلوق بخالقه وإلصاقه بعبادته**)، ولا ريب أن اللصوق بعبادة الله وتوحيده سبحانه هو المقصود الأعظم من جميع شرائع الله عز وجل.

قال مقيده - عفا الله عنه -: وقريب من ذلك ما ذكره ابن رجب - رحمه الله - في تفسيره للفاتحة حيث قال: (**رُوي عن الشَّعبيِّ أنَّه سمَّاها «الأساس»، وأنَّه قال: سمعتُ ابنَ عبَّاسٍ يقول: أساسُ الكُتُبِ القرآن، وأساسُ القرآن الفاتحة، وأساسُ الفاتحة بسم الله الرحمن الرحيم)، ولم نقف على إسناده**) ا.هـ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة: ٥

أي: نخصك بالعبادة فلا نعبد إلا إياك، ونخصك بالاستعانة فلا نطلب المعونة إلا منك.

لما ذكر سبحانه وتعالى اتِّصَافَهُ بصفات الجلال والكمال والجمال الدالَّةِ على استحقاقه لعبودية خلقه له واختصاصه بذلك، كان ذلك موجبًا لاعتراف العباد بعبوديتهم لله، فكأن العبد يقول: نخصك بالعبادة يا رب، لأنك الله الخالق، ونخصك بالاستعانة يا رب لأنك الرحمن الرحيم.

وفي الإتيان بنون الجمع في قوله: (**نعبد**) **إشارة إلى تواضع العبد ودخوله في ضمن الجماعة والأمة الإسلامية، وإلى أدائه العبادات بصورة جماعية**، بخلاف قولك: (**إياك أعبد**) ففيه إشعار بالكبر والغرور، والاعتداد بالنفس، والثقة بها والاتكال عليها.

وفي جمع الله بين العبودية والاستعانة، وتخصيصها بالذكر مع كون الاستعانة ضرب من العبادة، **دليل بأن العبد لا سبيل إلى تحقيقه للعبادة التي يريدها الله منه إلا باستعانته بالله وطلب العون منه، فلا سبيل لعبادة الله بغير معونة الله، وهذا هو معنى (لا حول ولا قوة إلا بالله).**

وفي تقديم العبادة على الاستعانة دليلٌ على أنَّ العبادة هي الغاية، والاستعانة وسيلة لها، وأنَّ قوله: (إياك نستعين) تفسير لنوع من أنواع العبادة، كما أن العبادة حق لله تعالى، والاستعانة حق للعبد من الله، فكان ذلك وجه الجمع والقسمة بين حق الله وحق العبد كما جاء في الخبر.

وقوله تعالى: (إياك نعبد) تلخيص لكلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، كما أن قوله: (إياك نستعين) تلخيص لكلمة العبودية (لا حول ولا قوة إلا بالله).

وأما مقصود: (إياك نعبد) فتطهير القلب من الشرك والرياء، ومقصود (إياك نستعين) تطهير القلب من العجب والكبرياء.

قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: (وَكَثِيرًا مَا يقْرِنُ النَّاس بَيْنَ الرِّيَاءِ وَالْعُجْبِ، فَالرِّيَاءُ مِنْ بَابِ الْإِشْرَاكِ بِالْخَلْقِ، وَالْعُجْبُ مِنْ بَابِ الْإِشْرَاكِ بِالنَّفْسِ، وَهَذَا حَالُ الْمُسْتَكْبِرِ، **فَالْمُرَائِي لَا يُحَقِّقُ قَوْلَهُ: {إيَّاكَ نَعْبُدُ}، وَالْمُعْجَبُ لَا يُحَقِّقُ قَوْلَهُ: {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، فَمَنْ حَقَّقَ قَوْلَهُ: {إيَّاكَ نَعْبُدُ} خَرَجَ عَنْ الرِّيَاءِ، وَمَنْ حَقَّقَ قَوْلَهُ {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} خَرَجَ عَنْ الْإِعْجَابِ** ... وَشَرٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مَنْ لَا تَكُونُ عِبَادَتُهُ لِلَّهِ، وَلَا اسْتِعَانَتُهُ بِاَللَّهِ، بَلْ يَعْبُدُ غَيْرَهُ، وَيَسْتَعِينُ غَيْرَهُ وَهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ الْوَجْهَيْنِ).

وقال ابن القيم - رحمه الله - في (المدارج): (**ثُمَّ إِنَّ الْقَلْبَ يَعْرِضُ لَهُ مَرَضَانِ عَظِيمَانِ، إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُمَا الْعَبْدُ تَرَامَيَا بِهِ إِلَى التَّلَفِ وَلَا بُدَّ، وَهُمَا الرِّيَاءُ، وَالْكِبْرُ، فَدَوَاءُ الرِّيَاءِ بِـ{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}، وَدَوَاءُ الْكِبْرِ بِـ{إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، وَكَثِيرًا مَا كُنْتُ أَسْمَعُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ يَقُولُ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} تَدْفَعُ الرِّيَاءَ {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} تَدْفَعُ الْكِبْرِيَاءَ، فَإِذَا عُوفِيَ مِنْ مَرَضِ الرِّيَاءِ بِـ{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}، وَمِنْ مَرَضِ الْكِبْرِيَاءِ وَالْعُجْبِ بِـ{إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، وَمِن مَرَضِ الضَّلَالِ وَالْجَهْلِ بِـ{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}، عُوفِيَ مِن**

أَمْرَاضِهِ وَأَسْقَامِهِ، وَرَفَلَ فِي أَثْوَابِ الْعَافِيَةِ، وَتَمَّتْ عَلَيْهِ النِّعْمَةُ، وَكَانَ مِنَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ، غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَهُمْ أَهْلُ فَسَادِ الْقَصْدِ، الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَعَدَلُوا عَنْهُ، وَالضَّالِّينَ وَهُمْ أَهْلُ فَسَادِ الْعِلْمِ، الَّذِينَ جَهِلُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ، **وَحُقَّ لِسُورَةٍ تَشْتَمِلُ عَلَى هَذَيْنِ الشِّفَاءَيْنِ أَنْ يُسْتَشْفَى بِهَا مِنْ كُلِّ مَرَضٍ**).

وقد تقدم أن سورة الفاتحة أولها ثناء وتحميد، وأوسطها تمجيد وتوحيد، وآخرها دعاءُ وسؤالُ العزيزِ المجيد، وبهذا خَلُصَ شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن التحميد والتوحيد مُقَدَّمٌ على التعظيم والتمجيد، ولهذا كان مُفْتَتَحَ صلاة العبد في الفاتحة بالتحميد ثم التمجيد ثم التوحيد، فإذا ركع العبد عظَّم ومجَّد الله عز وجل، ثم إذا رفع من الركوع عاد إلى التحميد بقوله: (**سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد**).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾* الفاتحة: ٦

أي: **دُلَّنا، وأرشدنا، ووفقنا وأوصلنا للطريق المستقيم.**

ومقصود الآية: **بيان أعظم مطالب المؤمنين، وهو سؤالهم الله أن يحقق لهم الهداية الكاملة في الدراين.**

فهذه الآية عبارة عن تقديم خطاب دعاء والتماس وطلب، يطلب العباد فيه من سيدهم وخالقهم أعلى مطالب الدنيا وأعظمها، بكل تواضع وخضوع وتذلل، ومطلبهم العظيم: الهداية للصراط المستقيم، المُوصِل إلى النعيم المقيم عنده تعالى، فهذا الطلب أعظم مطالب العباد على الإطلاق.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: (**هذا الدعاء هو الجامع لكل مطلوب**)، ويقول أيضا: (**تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال الله العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}**).

ومناسبة الآية بما قبلها: أنه لما تقدَّم الثناء على الله -عز وجل- في قوله: {الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّين} ثم الاعتراف بالعبودية له وحده، **ناسب أن يُعقِّبَ العبد بالسؤال والدعاء وتقديم الطلب**، وهذا أكمل أحوال السائل أن يمدح سيده، ثم يسأله حاجته.

[9] قال شيخنا الفقيه الشهيد عطية الله الليبي - تقبله الله -: (**كتب لي أحد المشايخ رسالة قال فيها: «سر الفاتحة {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، فعلقت عليها قائلا: «سر الفاتحة هو {اهْدِنَا}، إذا صح أن نسميَ شيئا: سر الفاتحة ولبها وقلبها وهي ما تنتهي إليه؛ فهي كلمة {اهْدِنَا}**؛ لأن سورة الفاتحة التي أوجب الله - سبحانه وتعالى - على المسلم في اليوم أن يقرأها مرات متعددة: إحدى عشر مرة لمن يقصر صلاته كحالاتنا الآن، ولمن يقيم ويتم صلاته سبعة عشر مرة، وواجب عليه أن يسأل الله الهداية بمقتضى قراءته للفاتحة، فهذا السؤال والدعاء الواجب على الإنسان أن يدعو به كل يوم، هل يوجد دعاء آخر يدعو به الإنسان؟ لا، اللهم إلا أن تكون مواضع مخصوصة لا تخضرني الآن، لكن هذا الدعاء واجب ولا يتم دين المرء إلا به؛ لأن الصلاة بدون فاتحة خداج، ومن لم يُصلِّ بها يمكن أن دينه كله يصير خداجًا، **فالفاتحة سرها في سؤال الله الهداية بقولنا: {اهْدِنَا} وذلك لأن ما قبلها توطئة لها وتوسلٌ للوصول إليها، وما بعدها تكميل لها، والثلاث الآيات الأولى كلها توسّل إلى المقصود، وهو {اهْدِنَا} توسل إلى الله بذكر صفات كماله وجلاله بالإشارة إلى أصولها -حمد وثناء وتمجيد-، هذا كله توسلٌ إلى المقصود، ثم توسل إلى الله أكثر واعتراف العبد بأنه يعبده ويستعين به على عبادته، ومقصود هذا كله هو {اهْدِنَا} فهذا هو كل الفاتحة، وما قبل هذا هو توسل وتوطئة وسعي إليها وصيرورة إليه، ثم {اهْدِنَا} هي مقصود الفاتحة كلها**، {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} وصف لهذا الصراط ونعت له وتوضيح بأنه صراط الذين أنعم الله عليهم، بأنه غير صراط الناس الذين ضلوا وانحرفوا من المغضوب عليهم والضالين، ثم الكلام في الصراط تكميل للسؤال. **فالفاتحة كلها؛ سرها ولبها ومقصودها هي في كلمة {اهْدِنَا} وهو سؤال الله الهداية وهذا المقصود الأعظم؛ أن يسأل العبد ربه - عز وجل - الهداية بكل معانيها**)

وقال في موضع آخر: (ثم ليعلم العبدُ المؤمن الذي هداه الله إلى أوائل مقامات الهداية، أن الهداية درجاتٌ ومقاماتٌ تسمو، كما قال الله - عز وجل -: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17)} [محمد] {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى} [مريم: 76]، **ولهذا أوجب الله - عز وجل - علينا أن نسأله الهداية كل يومٍ عددًا من المراتِ، وذلك هو الدعاءُ الواجبُ على كل مسلمٍ وذلك حين أوجب الله علينا قراءة الفاتحة في صلواتنا وفيها هذه الآية: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} وهي لبٌّ فاتحة الكتاب، إذ ما قبلها مقدمة وتوطئة لها بحمد الله والثناء عليه وتمجيده ثم التوسل إليه، وما بعدها تكميل للدعاء بإظهار معنى الصراط المستقيم وإدماج التحدث بنعمة الله تعالى على عباده المصطفين الأخيار الذين هداهم الله ومنّ عليهم وأنجحهم**).

وفي الإتيان بضمير الجماعة لا بضمير المفرد في قوله {اهدنا}، مثل ما تقدم ذكره في قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، ففيه من الفقه المستنبط: الدعاء للنفس بالهداية وللأمة الإسلامية جميعًا، واستشعار المرء أنه يعبد الله ضمن أمة واحدة.

وفي التعبير بالألف واللام في قوله **{اهدنا الصراط}** إفادة الاستغراق، بمعنى أنك تطلب من الله كمال الهداية لكل شعائر وشرائع هذا الصراط، بكل ما فيه من خيرٍ وبر وصلاح، فإذا تحقق ذلك للمرء، فقد تحقَّقَ للعبد كمال السؤال في الآية، والموفق من استشعر في هذا السؤال كمال الهداية لأمور الدنيا والآخرة كلها، وهذا معنى يغفل عنه كثير من الناس.

وفي وصف الله لهذا الصراط بالمستقيم دِلالاتٌ عِدَّة:

أولاها: الدِّلالة على **أن هذا الصراطَ صراطٌ واضحٌ لا اعوجاج فيه.**

وثانيها: الدلالة على **أنه صراطٌ مختصرٌ**، فالطريق المستقيم يكون أخصر من غيره.

وثالثها: الدلالة على **أنه صراطٌ سهلٌ يسيرٌ**، بخلاف الطريق الملتوي والمعوَج.

والصراط في اللغة: ما جمع خمسة أوصاف؛ أن يكون طريقًا مستقيمًا، وسهلًا ميسورًا، ومُعَبَّدًا مسلُوكًا، وواسعًا كبيرًا، وموصلًا للمقصود، وكل هذا واقعٌ بصراط الله المستقيم.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ الفاتحة: ٧

أي: **اهدنا الطريق المستقيم الذي هو طريق عبادك الذين أنعمت عليهم بنعمة الهداية للإيمان، وهو غير طريق المغضوب عليهم الذين عرفوا الطريق الصحيح فتنكبوه عن معرفة به فاستحقوا الغضب، ولا بالضالين الذين ضلوا طريق الحق فلم يهتدوا إليه.**

والحكمة من إعادة لفظ **(الصراط)** وتعريفه بأنه صراط الذين أنعمَ عليهم، مع كون السورة مختصرةً ويناسبها الإيجاز: **أن الآية غرضها التعريف بالصراط المستقيم، كي يتضح للعباد ماهو حقيقة وماهية الصراط المستقيم، وما هي الجماعة المهتدية السالكة لهذا الطريق المبارك، حتى يتسنى للمرء أن ينتمي إليهم، ويواليهم، ويسلك دربهم.**

وهذه الآية **قد اشتملت على بيان طريقي الانحراف عن الصراط المستقيم**، وأن الانحراف يكون انحرافًا إلى طرفين اثنين لا ثالث لهما كما قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -. **فالأول انحراف إلى طريق الضلال الذي سببه فساد العلم والاعتقاد، والثاني انحراف إلى طريق الغضب الذي سببه فساد القصد والعمل.**

فانحراف الطريق الأول هو انحراف بجهل لا عن علم وقصد، والانحراف الثاني انحراف بعلم وفسادٍ في القصد، والمقصود هنا طلب السلامة من طرفي الانحراف وأسبابه، ولهذا عبر بوصفي الغضب والضلال اللذين هما أصل الانحراف، وفي ذلك عِظَةٌ جليلةٌ لسائر التَّجَمُّعَات الإسلامية أن تحتاط لنفسها من سبل الانحراف التي انحرفت بكثير من السالكين عن الصراط المستقيم - نسأل الله السلامة والعافية -.

وفي قوله تعالى: {اهدنا الصراط المستقيم} حثٌّ وتوجيهٌ للأمة بأن تبذل أقصى طاقاتها العلمية في البحث عن طريق الهداية والرشاد في كل عصر وزمان ومكان، كما أن في قوله تعالى: {صراط الذين أنعمت عليهم} حثٌّ وتوجيهٌ لبذل سائر الطاقات العملية في الانتماء لجماعة المنعم عليهم في كل عصر وزمان ومكان، واللحاق بقافلتهم، والحركة والسير معهم في هذا الصراط، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطًا ﴾ الكهف: ٢٨، والإنسان تكمن في طبيعته طاقتان: طاقة علمية، وطاقة عملية، فالأنبياء قمة الكمال في الطاقة العلمية والعملية مَعًا، وأما من سِواهم فهم درجاتٌ في ذلك ومراتب، فالصديقون أقربُ درجةً إلى الأنبياء في الطاقة العلمية، والشهداء والمجاهدون في سبيل الله أقربُ درجةً إلى الأنبياء في الطاقة العملية، فإذا قرأنا {اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم..}، فهذا يقتضي منا أن نبحث عن الطوائف المنصورة التي لديها الاستعداد في الجوانب العلمية والعملية مَعًا، وأن نلتحق بها لأداء دورنا الدعويِّ الجهاديِّ الرياديِّ في حمل الرسالة المحمدية وقيادة الأمم بها.

وإنَّ من أكبر الثغرات في بنية الشخصية الإسلامية المعاصرة؛ استعدادها في جانبٍ دون جانب، فالبعض يقتصر استعداده واهتمامه بالجانب العلمي النظري كما تراه في أفراد الطوائف المنشغلة بطلب العلم الشرعي والتفقه في الدين فحسب، وتغلو في ذلك دون الاهتمام بالعمل في الجانب الدعوي والجهادي والسلوكي، وفي مقابلهم نجد من يهتم بالجانب العملي في الزهد أو الجهاد أو الدعوة ونحو ذلك، دون الاهتمام بالاستعداد العلمي والتفقه في الدين، وكل ذلك مجافاةٌ عن الهدي القويم والصراط المستقيم، وابتعادٌ عن سمات المنعم عليهم وصفاتهم، والواجب على المسلم أن يكون مَعْنِيًّا بالجمع بين الطاقتين العلمية والعملية.

ويجدر الإشارة هنا إلى أنَّ سورة الفاتحة تقوم على أصل التوازن بين العلميات والعمليات، ولهذا كان انقسام الناس إلى ثلاثة أقسام بناء على أصل العلم والعمل، فالمنعم عليهم علموا الحق وعملوا به، والمغضوب عليهم علموا الحق ولم يعملوا به بل جحدوه، والضالون يعملون بلا علم.

والمقصود من هذا كله؛ أن يدمن المرء سؤال الله الهداية لصراطه المستقيم، صراط الأمة المنصورة التي أنعم الله عليها في كل زمان، وموالاة أهلها، وقد تقرر أن المنعم عليهم نوعٌ عامٌ من الناس لا يخلو عنهم زمان، وأن لهم صراطًا مستقيمًا يسيرون فيه إلى الله، وأنهم بحسب سَدَادِ سيرهم في الصراط الدنيوي، يكون سَدَادُ سيرهم في الصراط الأخروي، وهكذا الشأن أيضا في المغضوب عليهم والضالين، فهما أيضًا أُمَّتَان ونوعان عامَّان لا يخلو عنهما زمان، ولا تندثر جماعاتهم عن الأرض حتى يأتي أمر الله.

وقوله تعالى: {غير المغضوب عليهم ولا الضالين} ليس بتخصيص يقتضي نفي كُلِّ صِفَةٍ عن أصحاب الصفة الأخرى، فإن كُلَّ مغضوبٍ عليه ضالٌ، وكلُّ ضالٍ مغضوبٌ عليه، غيرَ أنَّ الله ذكر كُلَّ طائفةٍ بأشهر وألصق أوصافها بها، وقد أبعدَ وأغربَ من ظنَّ أن المغضوب عليهم والضالين وصفٌ منحصرٌ بهاتين الطائفتين الكافرتين، أي اليهود والنصارى، بل في كل زمانٍ يُوجد من يُوصَفُ ببعض هذه الصفات من غير اليهود والنصارى، كشيوخ ودعاة وأمراء الديانة الإبراهيمية التي يدعون إليها الناس اليوم

بصخب، **فعلى المرء أن ينظر في زمانه عمن أصبح يجاري في طريقته الفكرية والعلمية والعملية طريقةَ المغضوب عليهم والضالين، سواء أكانوا من الأفراد أو الطوائف أو الأنظمة والحكومات، وهذا مطلبٌ مهمٌ في فَهْمِ سنن الهداية والإضلال كي يحتاط المؤمن لنفسه ودينه، فيدعوهم للحق المبين، ويُعلِّمُهم ويَحْذَرَهم ويُحَذِّرَ الناس منهم ومن صراطهم،** قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (والمعتزلة من أبعد النَّاس عَن طَرِيق أهل الكَشْف والخوارق، والصوفية يذمونها ويعيبونها، وَكَذَلِكَ يبالغون فِي ذمِّ النَّصَارَى أَكثر مِمَّا يبالغون فِي ذمِّ الْيَهُود، **وهم إِلَى الْيَهُود أقرب، كما أَن الصُّوفِيَّة وَنَحْوهم إِلَى النَّصَارَى أقرب،** فَإِن النَّصَارَى عِنْدهم عبَادَةٌ وزهدٌ وأخلاقٌ بِلَا معرفَةٍ وَلَا بَصِيرَةٍ فهم ضالون، وَالْيَهُود عِنْدهم عِلْمٌ وَنظرٌ بِلَا قَصْدٍ صَالحٍ وَلَا عبَادَةٍ وَلَا زهدٍ وَلَا أَخْلَاقٍ كَرِيمَةٍ، فهم مغضوبٌ عَلَيْهِم، وَالنَّصَارَى ضالون).

والمقصود أولًا وآخرًا: أن علينا اجتناب الصفات التي جعلت اليهودَ مغضوبًا عليهم، والصفات التي جعلت النصارى ضالين، فإن القرآن لا يذكر الشيء إلا للعبرة والاتعاظ والاعتبار، ولم تُصَرَّفْ آيات الكتاب إلا لحكمة بالغة، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ ﴾ القمر: ٤ - ٥

قال ابن تيمية - رحمه الله -: (**وَلَمَّا أَمَرَنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ نَسْأَلَهُ فِي كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ يَهْدِيَنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ الْمُغَايِرِينَ لِلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلِلضَّالِّينَ، كَانَ ذَلِكَ مَا يُبَيِّنُ أَنَّ الْعَبْدَ يُخَافُ عَلَيْهِ أَنْ يَنْحَرِفَ إِلَى هَذَيْنِ الطَّرِيقَيْنِ، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَيْثُ قَالَ: "لَتَسْلُكُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ" ؟، وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ، وَكَانَ السَّلَفُ يَرَوْنَ أَنَّ مَنِ انْحَرَفَ مِنَ الْعُلَمَاءِ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَمَنِ انْحَرَفَ مِنَ الْعُبَّادِ، فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارَى، كَمَا يُرَى فِي أَحْوَالِ مُنْحَرِفَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ تَحْرِيفِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَقَسْوَةِ الْقُلُوبِ، وَالْبُخْلِ بِالْعِلْمِ، وَالْكِبْرِ، وَأَمْرِ النَّاسِ بِالْبِرِّ وَنِسْيَانِ أَنْفُسِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ**).

وبعد تقرير ذلك كله؛ يلحظ الدارس والمخالط لبعض التجمعات والطوائف المعاصرة، تَنَكُّبَ بعضها لمنهج الهداية والرشاد، وانحرافها عن الصراط المستقيم، وبعدها عن الأخذ بالحِكَمِ القرآنية، والرسالة الشمولية العالمية التي نجدها مكتوبةً عندنا في القرآن، فنسأل اللَّهَ الْعَظِيمَ لنا وَلِسَائِرِ إِخْوَانِنَا المسلمين الهداية للصِّرَاط الْمُسْتَقِيم، صِرَاط الذِين أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وحسن أولئك رفيقا، وأن يعصمنا من صراط الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِم والضَّالِّين .. آمين.

من فقه الآيات وهداياتها

1- في سورة الفاتحة من الفقه؛ **وجوب معرفة العلوم الخمسة التي يجب على كل مسلم معرفتها**، وهي: **معرفة الله جل جلاله، ومعرفة صفات الله جمالا وكمالا وجلالا، ومعرفة حقوق الله على عباده، ومعرفة الصراط الموصل إلى الله تعالى، ومعرفة صفات السالكين في صراط الله.**

2- وفيها من الفقه؛ **وجوب توحيد الله في القضايا الخمس**، وهي: **توحيد في الألوهية، وتوحيده في الربوبية، وتوحيده في الأسماء والصفات، وتوحيده في المالكية، وتوحيده في الحاكمية التشريعية.**

3- وفيها من الفقه؛ اشتمال السورة على **أصول الأسماء الحسنى**، وهي ستة: **الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والمالك، والملك.**

4- وفيها من الفقه؛ **أن الله تعالى افتتح كتابه في سورة الفاتحة بأصول الصفات العليا الثلاثة، واختتم كتابه في سورة الناس بهذه الصفات الثلاث** أيضا، وهي: الربوبية والملكية، والإلهية.

5- وفيها من الفقه؛ اشتمال السورة على أصول **الصفات الذاتية لله وهي ثلاثة كونه: رحمانًا، ومالكا، ومعبودا.**

6- وفيها من الفقه؛ اشتمال السورة على أصول **الصفات الفعلية لله وهي خمسة كونه: رحيما، ومربيا، ومعينا، وهاديا، ومنعما.**

7- وفيها من الفقه، **تخصيص الله تعالى بالكمال المطلق بحقوقه الخمسة** وهي: الحمد والعبادة والاستعانة والهداية والإنعام.

8- وفيها من الفقه، **أن قوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، يُورِث في القلب حُبَّ المحمود والمربي وتعظيمه وهو الله - جل وعلا -.**

9- وفيها من الفقه، **أن قوله: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} يورث في القلب رجاء رحمة الرحمن الرحيم وهو الله - جل وعلا -.**

10- وفيها من الفقه، **أن قوله: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} يورث في القلب الخوف من ملك الجزاء ومالك الحساب وهو الله - جل وعلا -.**

11- وفيها من الفقه، **أن ورود قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} بعد الآيات التي تورث في القلب المحبة والتعظيم، ثم التي تورث في القلب الرجاء، ثم التي تورث في القلب الخوف، فيه وجوب عبادة الله بالحب والتعظيم والرجاء والخوف.**

12- وفيها من الفقه، **أن هذه القواعد الأربع التي تورثها آيات مطلع الفاتحة في قلب المؤمن؛ هي نفس القواعد الأربع التي تثبتها كلمة التوحيد، فإن كلمة (لا إله إلا الله) نفي لأربعة وإثبات لأربعة، نفي لحب الأنداد التي يحبونها كحب الله، ونفي لرجاء الآلهة التي يرجونها كرجاء الله، ونفي لتعظيم الأرباب التي يعظمونها كتعظيم الرب، ونفي لخشية الطواغيت الذين يخشونها كخشية الله، وإثبات لأربعة وهي: الحب والتعظيم والرجاء والخوف من لله رب العالمين.**

13- وفيها من الفقه، **أن السُّورةَ قد بُنِيَت على مبادئ استحقاق الله للعبودية وهي اتصافه بصفات الإلهيَّة والرُّبوبيَّة والرَّحمة والمالكية؛ ولهذا جاء قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} مَبنيٌّ على الإلهيَّة، و{وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} مَبنيٌّ على الرُّبوبيَّة، وطلبُ الهداية إلى صراطِه المستقيم مَبْنِيٌّ على الرَّحمةِ والمالكية**، والحمدُ يتضمَّنُ الأمُورَ الثلاثة فهو تعالى محمودٌ على إلهيَّتِه، ورُبوبيَّتِه، ورَحمتِه، ومالكيته.

14- وفيها من الفقه؛ **أن العَبْدَ محتاج لربه وخالقه**، فهو محتاج لسؤالِهِ الهِداية لصراطِ المنعَمِ عليهم، والعصمة من صراط المغضوبِ عليهم والضَّالِين. ولا يَمْلِكُ ذلك ويقدرُ عليه إلا الله جل جلاله.

15- وفيها من الفقه؛ أن مدلول **رحمة الله قد سبقت مدلول غضبه، ففيه ندب الخلق إلى التحلي بصفة الرحمة ولا سيما لأهل الجهاد في سبيل الله.**

16- وفيها من الفقه، **الدلالة على أنه سيكون في هذه الأمة المحمدية افتراق وانحراف عن الصراط المستقيم، فيجب على المؤمن الفطن أن يُمَيِّزَ ويفقه أمارات الانحراف عن صراط الله المستقيم، وأن يفرق بين التشبه بالمغضوب عليهم والتشبه بالضالين.**

هذا ما فتح الله به في تأويل آي الفاتحة، وبه ينتهي المطاف مع آياتها الجليلة، وفي النية إن كان في العمر بقية، أن أقف في الجزء الثالث من هذه السلسلة مع جلال وظلال سورة جمادية أخرى، والله أسألُ أن يرزق إخواننا المؤمنين بفلسطين الصبر والسلوان، والرضى بما قضى وقدَّر الرحمن، وأن يجعلنا وإياهم من أهل اليقين والجهاد والإيمان، وأن ينصرهم على اليهود الصهاينة المعتدين، والنصارى الصليبيين الظالمين، وأن يختم لنا في هذا الجهاد المقدس بشهادة خالصة في سبيله، مقبلين غير مدبرين، صابرين محتسبين، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله رب العالمين.

الفهرس

